القرآن والحضارة الإسلامية

مهرجان المصطفى ﷺ الثاني والعشرون للقرآن والحديث

القرآن والحضارة الإسلامية

مهرجان المصطفى صلى الله عليه وآله الثاني والعشرون للقرآن والحديث

١- تفسير سورتي الرعد وإبراهيم من تفسير الكاشف

٢- تفسير سورتي الرعد وإبراهيم من تفسير مجمع البيان

٣- نسيم الهداية المجلّد الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

روى عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، أنّه قال:

«آياتُ القرآنِ خَزائنُ فكُلَّما فتحتَ خزانةً ينبغي لكَ أن تنظرَ ما فيها»

الكافي: ج٢، ص٦٠٩

الفهرس

المقدمة..... ٧
تفسير الكاشف ٩
سورة الرعد..... ١١
سورة إبراهيم ٤٧
مباحث المعنى من مجمع البيان في تفسير القرآن..... ٧٩
سورة الرعد في لمحة..... ٨٣
تفسير سورة الرعد ٨٥
سورة إبراهيم في لمحة ١١٧
تفسير سورة إبراهيم ١١٩
نسيم الهداية أحاديث المعصومين عليهم السلام حول القرآن الكريم..... ١٤٥
فضل القرآن الكريم..... ١٤٧
فضل أهل القرآن وحملته ١٥١
فضل تعلم وتعليم القرآن الكريم ١٥٣
حفظ القرآن الكريم ١٥٧
استماع القرآن الكريم..... ١٦١
تلاوة القرآن الكريم ١٦٣
واجبات تلاوة القرآن الكريم..... ١٦٧
اضرار تلاوة القرآن الكريم..... ١٧٥
من كلمات القائد المعظّم دام ظله حول القرآن الكريم ١٧٩
أبعاد وخصائص القرآن الكريم ١٨١
الأنس بالقرآن الكريم..... ١٩١
حفظ القرآن الكريم ١٩٥
التدبر في القرآن الكريم ١٩٧
تلاوة القرآن الكريم ١٩٩
البحوث القرآنية ٢٠٣
نشر وترويج القرآن الكريم..... ٢٠٥
جلسات ومحافل وتلاوة القرآن الكريم..... ٢٠٧
الجمل القصار..... ٢٠٩

المقدمة

لا شكّ أنّ القرآن الكريم هو أوّل مصدر لاستقاء المعارف الدينيّة. وفضلًا عمّا يتمتّع به من بيان واضح وتعاليم صافية، تبرز آياته أقيم الأساليب ونماذج الحياة الإنسانية السعيدة، فهو أعظم الذكر، وأثمن الجواهر العرفانية والثقل الأكبر، وبتلاوته تأنس القلوب وتطمئن النفوس؛ لذا أخذت جامعة المصطفىﷺ العالمية – فرع لبنان المتمثلة بحوزتي الرسول الأكرمﷺ والسّيدة الزهراءعليها السلام على عاتقها رسالة ثقيلة في مجال التعليم وترويج الثقافة والمعارف القرآنيّة والحديثيّة وذلك عبر تزويد الطلاب بالمعارف القرآنيّة والحديثيّة ودعم تطبيق تعاليمهما المتعالية، وعليه تمّ تأسيس دار للقرآن والحديث في الجامعة. وقد تمحورت سياساته وأهدافه حول تأهيل الشخصيّة الإسلاميّة المتّزنة والملتزمة من خلال إحياء ذاتها الإنسانيّة بالمعارف القرآنيّة والحديثيّة التي هي المنبع الأساس والحجّة الأصيلة في كل العلوم الإسلامية، وفي كلّ الدروس والمواضيع المطروحة وخصوصاً العصريّة منها؛ لذا يُعنى الدار بتحفيظ القرآن الكريم وترتيله وتفسيره، ويهتم بكتابي نهج البلاغة والصّحيفة السجاديّة حفظاً للخطب والأدعية وشرحاً لمتونها عبر دورات مستمرّة مترافقة مع فترة الدراسة في كافة المراحل الدراسية ،كما يهتمّ بإقامة الندوات والمسابقات الثقافيّة. هذا فضلاً عن إعتنائه بإقامة الدورات بكلّ مستوياتها ولاسيما التخصصيّة منها، وذلك عبر الاستفادة من الأساتذة المتخصّصين الموجودين في لبنان والمستقدَمين من الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة أو مصر والعراق وغيرها.

ويتميّز دار القرآن والحديث إلى جانب مشاركاته الخارجية في المسابقات القرآنيّة والحديثيّة والدورات التأهيليّة بإقامة مسابقات دورية متنوعة، وعلى رأسها إقامة المهرجان الدولي للقرآن والحديث، الذي تنظمه وتقيمه جامعة المصطفىﷺ في الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة سنوياً وفي الفروع التابعة لها في العالم. وهو عبارة عن سلسلة مسابقات قرآنيّة وحديثيّة تُجرى بين طلبة العلوم الدينيّة والطلاب الجامعيين وخريجي المراكز الدينيّة والمدارس القرآنيّة والثقافيّة، حيث تعدّ هذه المسابقات فريدة من نوعها بصفتها أكبر نشاط قرآنيّ وحديثيّ عالمي من حيث تنوع أقسامها، وعدد المشاركين فيها.

- **أما أهداف إقامة هذا المهرجان وسياساته فهي الآتية:**

أوّلاً: الأهداف:

١- التعريف بتعاليم القرآن والعترة الطاهرة وأهميتها في بناء الذات الإنسانية؛ لنشرها والترويج لها وخلق أرضيّة خصبة للتمسّك بها.

٢- تأصيل أجواء الألفة بالقرآن والحديث والأدعية بين المخاطبين والارتقاء بها والتعريف بالإنجازات والقدرات

المعرفيّة للحوزات العلميّة وجامعة المصطفىﷺ في مجال القرآن والحديث.

٣- الكشف عن المواهب والكفاءات الواعدة لعشاق القرآن والحديث وتكريمهم والتعريف بالشخصيّات والنماذج القرآنيّة والحديثيّة الموفّقة.

٤- إيجاد علاقة وثيقة بين الخريجين والباحثين والكوادر العاملة في مختلف المجالات القرآنيّة والحديثيّة.

٥- إعادة تقييم الدورات التعليميّة للقرآن والحديث والنشاطات المتعلّقة بهما في مختلف أقسام جامعة المصطفىﷺ؛ وذلك لإشاعة الانسجام بينها وترشيدها وترسيخها.

ثانياً: السياسات:

١- التأكيد على الحركة في مسيرة تحقق الرسالات الحوزوية لجامعة المصطفىﷺ في التخطيط للمهرجان وإقامته.

٢- الاهتمام بموضوع معيّن في كل عام ويكون هو الشعار الخاص بالمهرجان ، ويتمّ التركيز على محوريّته في مواد المهرجان ومضامينها.

٣- الاهتمام بتوزيع متوازن لمواد المهرجان في مجال الحديث والأدعية وبخاصّة نهج البلاغة والصحيفة السجاديّة إلى جانب القرآن الكريم.

٤- التعريف بالقدرات العلميّة والتنفيذيّة واستثمارها في مراكز المصطفىﷺ داخل البلد وخارجه.

وبحمد الله والثناء عليه، والتمسّك بحبله المتين وسراجه المنير والعترة الطاهرةعليهم السلام، وبمشاركة عُشّاق العلوم الأصيلة للثقلين المباركين تفتتح جامعة المصطفىﷺ العالميّة ورقة ذهبية جديدة من النشاطات القرآنيّة والحديثيّة بإقامتها المهرجان الثاني والعشرين تحت شعار «**القرآن والحضارة الإسلاميّة**»، وتأمل أن تكون هذه المبادرة العالميّة والثقافيّة والتربويّة المتحورة حول القرآن الكريم والحديث الشريف باعثاً على تقدّم وسمو شاملين لأسرة المصطفى الكبيرة في سماء العلوم الإسلاميّة والمناهج القرآنيّة والحديثيّة الأصيلة، وخطوة موفّقة في مسيرة تحقّق نهضة قرآنيّة متكاملة في العالم.

وقد أعدّ خدّام الثقلين المباركين في جامعة المصطفىﷺ مادّة علميّة من حقلي التفسير والحديث — مع رعاية الفوارق بين الطلاب ومستوياتهم-، وجمعوا هذه المادة في هذا الكتاب، فجاءت موزعة على مضامين عديدة كالآتي:

- تفسير سورتي الرعد وإبراهيم من تفسير الكاشف للشّيخ محمد جواد مغنية.
- تفسير سورتي الرعد وإبراهيم من تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي. (للماجستير)
- كتاب نسيم الهداية (مج٤) وهو عبارة عن أحاديث للمعصومينعليهم السلام ومن كلمات الإمام الخامنئيدام ظله عن القرآن الكريم.

ختاماً نتقدّم بالشكر من جميع القيّمين على إقامة هذا المهرجان، والمنظمين له والعاملين على تطويره؛ ليكون شعلة منيرة في زمن التَبَسَتْ فيه الفتن.

المسيرة الدراسية فى تفسير القرآن الكريم

تفسير
الكاشف

تفسير سورة الرعد - إبراهيم

سورة الرعد

[آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)

الإعراب

تلك آيات الكتاب مبتدأ و خبر. و الذي أنزل مبتدأ و الحق خبر.

المعنى

﴿ المر ﴾ سبق مثله مع التفسير في أول سورة البقرة ﴿ تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ﴾.أي ان آيات هذه السورة هي من القرآن الكريم، أما الغرض من هذا الاخبار فهو بيان ان هذه السورة حق لأنها من القرآن، و هو حق فهي مثله، و هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾. و يأتي هنا هذا السؤال: ما الدليل على أن القرآن حق؟. و تجد الجواب في ج ١ ص ٦٤- ٦٨. قال الإمام علي عليه السلام: ان القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه و لا تنقضي غرائبه، و لا تكشف الظلمات الا به ﴿ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالقرآن و لا بغيره من أقوال الحق و العدل الا من يرى خيره في خير الناس، و شره في شرهم. قيل لرجل من أهل اللّه: احترق السوق الذي فيه حانوتك، و لكن سلم حانوتك .. فقال: الحمد للّه. ثم تنبه الى انه قد عصى اللّه، حيث أراد لنفسه الخير دون الناس، فاستغفر من ذنبه و تاب، و أمثال هذا هم الفئة القليلة الذين يقفون في الجانب المضاد للفئة الكثيرة التي عناها اللّه بقوله: ﴿ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

[الآيات ٢ الى ٤]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

اللغة

الرواسي الجبال الرواسخ. و يغشي يغطي. و جنات بساتين. و صنوان هي النخلات الكثيرة يجمعها أصل واحد، و غير صنوان متفرقات و من أصول شتى، و واحد الصنوان صنو. و الأكل بضم الهمزة و الكاف ما يؤكل.

الإعراب

ضمير ترونها يعود الى السموات، و جملة ترونها صفة للسموات لا للعمد أي أنها في واقعها تماما كما ترونها بلا عمد. و جملة يدبر مستأنفة، و مثلها يفصل. و اثنين تأكيد لزوجين. و فاعل يغشي ضمير مستتر يعود الى اللّه، و الليل مفعول أول و النهار مفعول ثان.

المعنى

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾. قلنا في فقرة الإعراب ان الهاء في ترونها عائدة الى السموات، و ان الجملة الفعلية صفة لها، لا للعمد، و عليه يكون المعنى ان اللّه رفع السموات بأمره، و هي مرفوعة في الواقع تماما كما ترونها في الظاهر من غير عمد. و في مستدرك نهج البلاغة ان الإمام عليا عليه السلام وصف السماء بقوله: «رفع السماء بغير عمد- أي واقعا و ظاهرا- و بسط الأرض على الهواء بغير أركان». و في نهج البلاغة: «أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، و أرساها من غير قرار، و رفعها بغير دعائم».

﴿ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ﴾. هذا كناية عن انه تعالى يملك الكون و يدبر أمره بعلمه و حكمته، كما قال في الآية نفسها: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ و مرت هذه الجملة في الآية ٥٤ من سورة الأعراف، و الآية ٣ من سورة يونس، ﴿ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ بانتظام كما ترى أعيننا، و لغاية معينة كما تدرك عقولنا .. و الشمس تقطع فلكها في سنة، و القمر في شهر، كانا كذلك منذ ملايين السنين، و سيبقيان كذلك الى ما شاء اللّه، لا تختلف سنة عن سنة، و لا لحظة عن لحظة، و هذا دليل قاطع على وجود عليم حكيم، أما الصدفة فيبطلها النظام و التكرار.

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ كل أمر بلا استثناء و منه تسخير الشمس و القمر، و إرسال الرسل، و انزال الكتب .. الى ما لا نهاية ﴿ يُفَصِّلُ الْآياتِ ﴾ يبين الدلائل على وجوده .. و لما ذا ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ خلق سبحانه الكون، و أحكمه على أكمل الوجوه، و العقول السليمة تدرك هذا التدبير و الأحكام، و تستدل به على وجود المدبر الحكيم، و قدرته على اعادة الخلق، لأن من قدر على إيجاد الكون من لا شيء، و رتب ما فيه من الكواكب و غيرها في غاية الإحكام و الدقة فبالأولى أن يقدر على جمعه بعد تفرّقه، فإذا ثبتت القدرة على الاعادة بحكم العقل، و قد أخبر الصادق الأمين عن الوحي بأنها سوف تقع

لا محالة كان وقوعها حتما لا مفر منه. و بعد ان ذكر سبحانه السموات ذكر الأرض، و الغرض واحد، و هو تنبيه الغافلين الى الأدلة الكونية على وجود اللّه و عظمته، و أن من خلق هذا الكون الضخم بأرضه و سمائه قادر على أن يرسل الرسل، و ينزل الكتب، و يحيي الموتى، و هذه الأدلة منها سماوية كرفع السموات بغير عمد، و تسخير الشمس و القمر، و منها أرضية كالتي أشار اليها سبحانه بقوله:

١- ﴿ وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾. أي بسطها و مهدها، قال تعالى في الآية ١٩ من سورة نوح: ﴿ وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً ﴾. أي واسعة. و في الآية ٣٠ من سورة النازعات: «و الأرض بعد ذلك دحاها». و دحو الشيء في اللغة بسطه و تمهيده. و من الواضح ان بسط الأرض وسعتها و تمهيدها لا يدل من قريب أو بعيد على انها مسطحة أو كرة، لأن الجسم إذا كبر حجمه كالأرض كانت كل جهة منه ممتدة و متسعة في الطول و العرض، و ان كان على شكل الكرة، و عليه فلا شيء في الآية يمنع من القول بكروية الأرض التي لا ريب فيها، قال الرازي عند تفسير هذه الآية: «انه ثبت بالدلائل ان الأرض كرة، فكيف يمكن المكابرة في ذلك .. و الأرض جسم عظيم، و الكرة إذا كانت في غاية الكبر كانت كل قطعة منها تشاهد كالسطح». و كان علماء اليونان في عهد أرسطو متفقين على كروية الأرض، و لكنهم قالوا بسكونها.

٢- ﴿ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ ﴾ لفظ الرواسي صفة للثوابت من كل نوع، و لكنه غلب على الجبال لكثرة الاستعمال، بحيث إذا أطلق لفظ الرواسي من غير ذكر الموصوف فهم منه الجبال، و الحكمة من وجودها استقرار الأرض و ثباتها، قال تعالى: ﴿ أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَ الْجِبالَ أَوْتاداً ﴾ (٧ النبأ).

٣- ﴿ وَ أَنْهاراً ﴾ قرن سبحانه الأنهار بالجبال لأنها تتفجر من تحتها، قال تعالى: ﴿ وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً ﴾ (٢٧ المرسلات).

٤- ﴿ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾. أي ان كل صنف من الثمر في نباته زوجان: ذكر و أنثى ظاهران كفحول النخل و إناثها، أو خفيان كسائر النباتات، قال الشيخ المراغي في تفسيره: «فقد أثبت العلم حديثا ان الشجر و الزرع لا يولدان الثمر و الحب الا من اثنين ذكر و أنثى، و قد يكونان في شجرة كأغلب الأشجار، أو شجرتين كالنخل». و في مجلة «العلوم» اللبنانية عدد آب ١٩٦٧ مقال بعنوان «كيف تبعث الحياة في الكائنات» جاء فيه ان الحشرات تحمل على أجسامها اللقاح الضروري الى أكمام الزهر دون أن تخطئ في التبليغ و ان الطائر يلقح زهرة الزنبق بمنقاره. انها لمعجزة .. و في الحرب العالمية الثانية نزل الحلفاء بكورسيكا فمرض الزيتون و قلّ ثمره، و أرادت أمريكا مساعدة الأهالي فرشت الزيتون بمادة د. د. ت. فماتت الحشرة الضارة، و لكن مات معها سائر الحشرات الأخرى، فكانت النتيجة

في السنة التالية لا شيء إطلاقا لأية شجرة من الزيتون و الليمون و اللوز. و بهذا يتبين ان الثمر لا يكون الا بلقاح الذكر للأنثى.

٥- ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ﴾ مرّ تفسيره في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٩ ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في هذا الكون الذي يسير وفقا لقوانين ثابتة لا يحيد عنها بحال، و لولا ثبوتها لاستحال على العلماء أن يرصدوها و يستفيدوا منها قواعد عامة، و من الواضح ان الدوام ينفي الصدفة، و من أجل هذا آمن الكثير من علماء الطبيعة بوجود اللّه تعالى.

٦- ﴿ وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ﴾ ان اجزاء الأرض يلتصق بعضها ببعض و مع ذلك تتنوع إلى سهل و جبل و صلب و رخو و خصب و جدب و تراب و رمل و سواد و بياض، و ما أشبه. و السر هو أمر اللّه و تدبيره في خلقه ﴿ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ﴾ بساتين من الكرمة ﴿ وَ زَرْعٌ ﴾ من أنواع شتى ﴿ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ ﴾ هي النخيلات من أصل واحد غير متنوع لأن النخل على أنواع ﴿ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ ﴾ هي النخيلات من أصول متنوعة، و خص الأعناب و النخيل بالذكر لأنهما الثمر الغالب أو مظهر الثراء أو هما معا في ذاك العصر، و يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿ وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً ﴾ (٣٢ الكهف).

﴿ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ﴾ كالمطر أو البئر أو النهر، و أيضا المكان واحد بالقرب و المجاورة، و مع ذلك يختلف الثمر لونا و حجما و رائحة و طعما، و السر تدبير اللّه و حكمته ﴿ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ على الرغم من ان وسائل التكوين و النمو واحدة ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. أي ان في هذا التفاوت مع وحدة المكان و الماء و الهواء دلائل واضحة على وجود المدبر الحكيم عند من لا يؤمن بشيء إلا بعد التفكر و التدبر. و من أقوال الإمام علي: لا علم كالتفكر، و لا حسب كالتواضع.

السيد الأفغاني و الدهريون

و أحسن شرح لهذه الآية بمجموعها ما جاء في رسالة الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغاني، قال «إذا سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند و النباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ إلا ظنا، و أصولها تضرب في بقعة واحدة، و فروعها تذهب في هواء واحد، فما السبب في اختلاف كل منها عن الأخرى في بنيتها و شكلها و أوراقها و طولها و قصرها و ضخامتها و رقتها و زهرها و ثمرها و طعمها و رائحتها، فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان و الماء و الهواء؟. أظن انه لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه .. و إذا قيل له: هذه أسماك بحيرة أورال و بحر قزوين مع تشاركها في المأكل و المشرب و تسابقها في الميدان، نرى فيها اختلافا نوعيا و تباينا بعيدا في

الألوان و الأشكال و الأعمال، فما السبب في هذا التباين و التفاوت؟ فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر». أي الضيق.

و تسأل: ان لدارون ان يجيب السيد الافغاني بأن علماء النبات يعرفون الأسباب الطبيعية لهذا الاختلاف، و يستطيعون الكشف عنها لكل طالب و راغب .. فلا ضرورة، و الحال هذه، إلى افتراض وجود المدبر فيما وراء الطبيعة؟.

الجواب: لو سلمنا جدلا بأن علماء النبات يعرفون ذلك فان لمعرفتهم حدا تقف عنده و لا تتجاوزه، و هو السبب القريب المباشر للتفاوت .. و لو سألوا عن السبب البعيد الذي أوجد السبب القريب لم يجدوا تفسيرا له إلا بأحد فرضين: اما الصدفة، و اما وجود مدبر حكيم وراء الطبيعة، و الفرض الأول باطل لأن الصدفة لا تتكرر و لا تدوم، فتعين الثاني .. و سبق البيان أكثر من مرة ان من عادة القرآن أن يسند للّه جميع الحوادث الطبيعية المتولدة من أسبابها الكونية، من باب اسناد الشيء الى فاعله الأول لهدف التذكير باللّه، و انه خالق الكون بأرضه و سمائه.

و تقول: ان للدهريين أيضا ان يسألوا بدورهم عن السبب لوجود المدبر وراء الطبيعة؟.

و نجيب بأن هذا السؤال غير وارد من أساسه لأن الفرض ان المدبر لا سبب له، و انه هو سبب الأسباب، فالسؤال عن سببه تماما كالسؤال: من خلق اللّه بعد الفرض انه خالق غير مخلوق، و كالسؤال عن سبب صدق العين فيما ترى، و الاذن فيما تسمع مع الفرض انهما حجة قاطعة لكل شك و شبهة.

[الآيات ٥ الى ٧]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ﴿٧﴾

اللغة

الاغلال جمع غل، و هو قيد تشد به اليد الى العنق، و السيئة النقمة، و الحسنة النعمة. و المثلات جمع مثلة بفتح الميم و ضم الثاء، و هي العقوبة مع وجود أثر يدل عليها كجدع الأنف و نحوه.

الإعراب

فعجب خبر مقدم و قولهم مبتدأ مؤخر. و إذا في محل نصب تتعلق بفعل محذوف دل عليه الكلام أي: أ إذا كنا ترابا نبعث. و أولئك الذين كفروا بربهم مبتدأ و خبر لأن الكلام تام و مفيد. و مثله أولئك الأغلال في أعناقهم. و أولئك أصحاب النار مبتدأ أول و ثان و هم ضمير فصل، و خالدون خبر الثاني و الجملة خبر الأول، و فيها متعلق «بخالدون». و قبل ظرف متعلق بيستعجلونك. و هاد مبتدأ مؤخر و هو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لأن أصله هادي كقاضي. و لكل قوم خبر مقدم، و الجملة مستأنفة.

المعنى

﴿ وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾. الخطاب لمحمدﷺ، و ضمير قولهم للمشركين الذين أنكروا نبوته، و المعنى ان تعجب من عبادة المشركين للأصنام، و انكارهم نبوتك فإن تكذيبهم بالبعث أعجب و أغرب، ذلك انهم يعترفون بأنه تعالى خلق الكون و أوجده، و من قدر على ذلك فبالأولى ان يقدر على اعادة الإنسان بعد موته.

﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾. ذكر سبحانه أولئك ثلاث مرات مبالغة في التهديد و التعبير عن غضبه و سخطه .. و قوله: أولئك الذين كفروا بربهم يدل على ان من آمن بان اللّه هو خالق الكون يلزمه حتما أن يؤمن بأنه تعالى قادر على ان يبعث من في القبور، و من أنكر ذلك فقد كفر باللّه من حيث يريد أو لا يريد، و من جمع بين الإيمان باللّه، و بين الإيمان بعجزه عن احياء الأموات فقد جمع بين النقيضين و المشركون قد أنكروا البعث لأن اللّه بزعمهم لا يقدر عليه كما يشعر قولهم: أ إذا كنا ترابا أ إنا لفي خلق جديد .. اذن، هم منكرون للّه في واقعهم، و ان اعترفوا به بألسنتهم.

الماديون و الحياة بعد الموت

أنكر الماديون وجود اللّه، و بالأولى أن ينكروا الحياة بعد الموت، و دليلهم واحد لا تبديل فيه و لا تعديل، و هو كل ما يظهر للحواس عيانا و مشاهدة يجب الايمان به، و كل ما يخفى عليها يجب نفيه و إنكاره، فالحواس هي الأول و الآخر، و الظاهر و الباطن على حد تعبيرهم .. اذن، كيف يؤمنون بالجنة و لم يأكلوا ثمارها؟

و كيف يعتقدون بجهنم و لم تصلهم بنارها؟.

و نحن نسألهم بدورنا: من أين لكم هذا العلم أو الايمان بأن الحواس الظاهرة هي وحدها طريق الحق و الواقع، و ما عداها لغو و كلام فارغ؟ على حد تعبيرهم أيضا. فإن قلتم جاءنا من شهادة الحواس قلنا: نحن عندنا حواس، و ما رأينا أحدا- غيركم- يقول: لا تصدقوا الا الحواس. و ان قلتم: جاءنا من غير

الحواس فقد ناقضتم أنفسكم بأنفسكم، حيث آمنتم بما لا شاهد عليه من الحواس. في سنة ١٩٦٢ ألّفت كتابا في الرد على الماديين، و هو كتاب «فلسفة المبدأ و المعاد» طبع و نفدت نسخه في أمد قصير، ثم قرأت بعده كثيرا عن الماديين و الردود عليهم، من ذلك:

١- يجب على منطق الماديين ان لا يوجد أي فرق بين الإنسان صانع المعجزات و بين أحقر الحشرات التي تولدت من العفونة و القذارات، ما دام كل منهما ابنا شرعيا للصدفة و الطبيعة العمياء و لم تنله يد العناية و التدبير.

٢- لقد وجد العلماء في دماغ الإنسان ١٤ ألف مليون خط منسقة و مرتبة ترتيبا محكما و دقيقا، يعجز عنه أعظم المهندسين بل كلهم مجتمعين، بحيث إذا انحرف واحد منها قيد شعرة عن موقعه ذهب ادراك الإنسان أو اضطرب، تماما كما يحدث لنور الكهرباء إذا اختلت الأسلاك .. و لا تفسير لذلك عند العقل إذا لم يفرض وجود مدبر حكيم لا يحس بالعين أو الأذن أو اليد أو الأنف أو اللسان .. و مهما بلغت الصدفة من المعجزات و الخوارق فإنها لا تنشئ محطة كهرباء واحدة، و توصل بها ١٤ ألف مليون خط محكمة الصنع و الوضع في آن واحد، فكيف إذا كانت هذه المحطات على عدد رؤوس الآدميين و أدمغتهم؟ .. و فوق ذلك أنها تحس و تشعر.

٣- يقول الماديون: ان دماغ الإنسان، تماما كالعقل الالكتروني، كلاهما مجموعة من أجزاء جامدة مرتبة و منسقة على شكل تترتب عليه تلك الآثار و المعطيات .. و أجابهم العالم الفرنسي «كوسا» بقوله: «إذا زعقت سيارتي القديمة، و تأوهت مثل المصاب بآلام الروماتزم فهل يمكنني أن أقول: ان سيارتي تعاني من آلام الروماتزم؟. و إذا حشرج فيها الكاربوريتر عند ما أضغط على البنزين فهل يمكن أن أقول: انه مصاب بالربو؟» .. و نعطف نحن على قول هذا العالم ان الترتيب و التنسيق في العقل الالكتروني جاء من فعل الإنسان ما في ذلك ريب، و لكن من الذي رتب و نسق دماغ الإنسان؟

و إذا اخترع الإنسان عقلا الكترونيا فهل يستطيع هذا العقل الالكتروني أن يخترع عقلا مثله أو دونه و لو دبوسا؟. و في كتاب «العمل و المخ» للعالم السوفيتي يوري باخلوف، ترجمة شكري عازر: «الذين يظنون ان في إمكان الآلة أن تحل محل المخ الانساني يخطئون خطأ جسيما .. ان المخ الانساني يمتاز بقابليته لتلقّي المهارات و العبقريات و العادات إلى ما لا نهاية، أما العقل الالكتروني فإنه محدود، و خاضع لما يقرر له الإنسان».

٤- «ان أعظم اكتشاف للنحل- غير ما هو معروف عنه- انه عرف قبل الإنسان جهاز التكييف، فإذا ارتفعت درجة الحرارة في خلية النحل يذهب فوج منه و يأتي بالماء في خراطيمه و يضعه في خزان، حتى

إذا اجتمع منه قدر الكفاية قام فوج آخر برشه، و هزّ ثالث أجنحته ليصنع تيارا من الهواء، فيتبخر الماء بسرعة، و مع هذا التبخر تنخفض درجة الحرارة».

من الذي ألهم النحل الى الاختراع، الصدفة، أو ان وراء الطبيعة قوة و حقيقة هي المدخل الى الطبيعة و نظامها؟ .. و للنحل و النمل و غيرهما حكايات تفوق التصور و لا تفسير لها إلا بوجود مدبر حكيم .. و نعود الى قول فولتير الذي أشرنا اليه فيما سبق أكثر من مرة، و هو «امام الفكرة في وجود اللّه عقبات، و لكن في الفكرة المضادة حماقات .. و هكذا ينتقل الإنسان من شك إلى شك حتى يصل الى ان التصديق باللّه هو الأقرب، و به تتعلق القوانين الضرورية للعالم».

﴿ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾. المراد بالسيئة هنا العقاب، و بالحسنة الثواب، و بالمثلات العقوبات .. دعا رسول اللّهﷺ المشركين إلى التوحيد، و وعدهم بالثواب ان استجابوا، و توعدهم بالعقاب ان استنكفوا، و بدلا من ان يستجيبوا و يتوبوا من الشرك ازدادوا تمردا و طغيانا، و أخذتهم العزة بالإثم، و قالوا: عجل لنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين، قالوا هذا و لم يعتبروا بالأمم الخالية الذين عصوا رسل ربهم، فأخذهم اللّه أخذا وبيلا. و تجدر الاشارة الى ان الغفلة عن الاعتبار و الاتعاظ لا تختص بالمشركين وحدهم فإن أكثر الناس لا يعتبرون بالغير، و لا يتعظون بالعبر، حتى الواعظين .. و السر أن الاكثرية الغالبة تنقاد لمصلحتها و عاطفتها، لا لعقلها و دينها، و في الأمثال الغربية: المرأة تقود الرجل من بطنه لا من عقله.

﴿ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ ﴾. المراد بالمغفرة هنا الامهال و عدم تعجيل العقوبة على الذنب، و القرينة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ ﴾ لأن المغفرة لا تجتمع بحال مع العقوبة الأخروية فضلا عن شدتها، و المعنى ان اللّه سبحانه لا يعاقب العبد بمجرد ان يذنب و يسيء، و انما يؤخره، و يفتح له باب التوبة على مصراعيه، عسى أن يرجع عن غيه، و يثوب إلى رشده.

و قيل في تفسير الآية: ان اللّه تعالى يغفر الذنوب للعصاة من المسلمين، و يشدد العقاب على الكافرين .. و هذا التفسير خلاف الظاهر، بالاضافة إلى أنه إغراء بالمعصية، و تشجيع للعصاة .. و الحق ما قلناه، و الدليل قوله تعالى: ﴿ وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (٦١ النحل). فإن القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض.

﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ﴾. مر نظيره في الآية ٣٧ من الأنعام ج ٣ ص ١٨٤. و تكلمنا مفصلا عن معجزة محمدﷺ و طلب المكابرين عند تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة ص ١٨٩.

[الآيات ٨ الى ١١]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ﴿٨﴾ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ ﴿٩﴾ سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴿١١﴾

اللغة

الغيض ذهاب المائع في جهة العمق، و منه غيض الماء أي ذهب في الأرض و غار، و يستعمل الغيض في النقصان، و هذا المعنى هو المراد بقرينة قوله تعالى: و ما تزداد، و ينبغي أن يكون المقصود زيادة الأرحام و نقصانها في عدد الأولاد. و المتعالي المستعلي على كل شيء. و السارب الجاري. و معقبات جمع معقبة، و المراد بها هنا حواسه و غرائزه التي تحرس كيانه.

الإعراب

ما تحمل «ما» اسم موصول في موضع نصب بيعلم، و قال الطبرسي: هي استفهام في موضع نصب بتحمل، و المعنى أي شيء تحمل، و الجملة معلقة بيعلم. و كل شيء مبتدأ، و بمقدار متعلق بمحذوف خبرا للمبتدإ، و عنده ظرف متعلق بما تعلق به الخبر، و التقدير كل شيء كائن بمقدار عند اللّه. و عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب. و سواء خبر مقدم، و من أسرّ مبتدأ مؤخر. و من وال «من» زائدة اعرابا و وال مبتدأ مؤخر، و ما لهم خبر مقدم.

المعنى

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ ﴾. ذكر سبحانه في الآية السابقة ان المشركين طلبوا من محمدﷺ المزيد من المعجزات الدالة على نبوته، و في هذه الآية قال: انه تعالى يعلم ما في أرحام النساء ذكرا كان أو أنثى، واحدا أو أكثر، ناقصا أو تاما، و من يعلم هذا يعلم ان طلب المزيد من المعجزات انما هو لأجل العناد و المكابرة لا بقصد الاسترشاد و طلب الهداية .. و في نهج البلاغة: ان اللّه

يعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و شقي أو سعيد. و اتفق المسلمون جميعا ان اللّه تعالى يعلم جميع المخلوقات كبيرها و صغيرها، لأن كل مخلوق فهو معلوم لدى خالقه. و بتعبير محيي الدين بن العربي: ان ما من موجود في العالم الا و له وجه خاص الى موجده .. ثم اختلف الفلاسفة و علماء الكلام في ان اللّه يعلم الجزئيات كأفراد الحيوان و النبات و الجماد علما مباشرا و من غير توسط، أو يعلمها بتوسط أسبابها و ما تتولد منه؟. قال المتكلمون بالأول، و ذهب الفلاسفة الى الثاني. و نحن لا نرى أية جدوى في هذا الخلاف، لأن على المسلم أن يؤمن بأن علم اللّه شامل لكل شيء كليا كان أو جزئيا، حتى خفقة القلب و اللمحة في الذهن، أما الايمان بأن علمه تعالى على هذا النحو دون ذاك فليس من الدين في شيء .. و هناك أحاديث تنهى عن التفكر في ذات اللّه، و تأمر بالتفكر في خلقه و صنعه.

﴿ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ﴾ فلا يخلقه عبثا و من غير أصول، بل لكل شيء حده و نظامه في الكم من حيث أجزاؤه و مقوماته و خواصه و آثاره، و في الكيف من حيث شكله و صورته و مكانه و زمانه، و أسبابه و سننه- كل ذلك على ما تستدعيه الحكمة و المصلحة .. و كل ما يستطيعه الإنسان هو أن يرى و يراقب، و يعادل و يقيس، و قد يخطئ أو يصيب، لأن علم الإنسان مكتسب يفتقر الى سبب، و كثيرا ما يظن ان هذا الشيء سبب للعلم بكذا، و هو في واقعه جهل محض، أما علمه تعالى فهو ذاتي و عين الواقع.

﴿ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ ﴾. ليس المراد بالكبر الضخامة، و بالعلو المكان المحسوس، بل هما كناية عن عظمة اللّه في ذاته و صفاته، و عالم الغيب ما غاب عنا علمه، و عالم الشهادة ما نراه و نشاهده .. ان الكون مليء بالمخلوقات من شتى الأجناس و الأصناف العلوية و السفلية، فمن الجراثيم الى الإنسان و الملائكة، و من المعادن الى النبات و الحيوان، الى الماء و الهواء، و ما فيهما، الى ما لا نهاية، و قد يعلم الإنسان طرفا من أشياء الكون، و لكن علمه مهما بلغ لا يعد شيئا الى جانب ما غاب عنه، فأكثر الحقائق وضوحا تبطن الكثير من الأسرار، و لا يعلم كلّ ما في الكون الا خالق الكون، فهو وحده الذي يتساوى لديه السر و العلن، و الغائب و الشاهد و ما أوتيتم من العلم الا قليلا.

﴿ سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ ﴾. مر نظيره في الآية ٧٨ من التوبة، و الآية ٣ من الأنعام ج ٣ ص ١٥٩.

﴿ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾. ضمير له و يديه و خلفه يعود الى الإنسان، كما هو الظاهر من سياق الكلام، و معقبات كناية عن حواس الإنسان و غرائزه التي لها تأثيرها في صيانته و حفظ كيانه، و «من» في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ بمعنى الباء مثلها في قوله تعالى: يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ (٤٥ الشورى). أي بطرف خفي، و في ذلك رواية عن الإمام أبي جعفر الصادق٧. و قال

المفسرون: المراد بالمعقبات الملائكة، و في بعض التفاسير ان اللّه يرسل عشرة من الملائكة بالنهار يحرسون الإنسان، و عند الغروب يذهب هؤلاء، و يأتي عشرة آخرون يحرسون بالليل، و هكذا يفعل مع كل فرد من أفراد الإنسان في كل يوم من الأيام، اما إبليس فيقوم بدور الغواية و تضليل الإنسان بالنهار، و أولاده بالليل. و بالإضافة إلى ان هذا بعيد عن دلالة اللفظ فإن الافهام و الأذواق ترفضه و تأباه و الذي نتصوره نحن ان المراد بالمعقبات حواس الإنسان و غرائزه التي بها يحفظ وجوده و كيانه، كما أشرنا، و ان المعنى ان اللّه سبحانه خلق الإنسان، و جعل فيه السمع و البصر و الإدراك و غيرها من الصفات و الغرائز لتحرسه و تصونه، و هذا المعنى و ان كان بعيدا عن دلالة اللفظ فإنه يتفق مع الواقع، و لا ينفيه السياق، فبالادراك يميز الإنسان بين النافع و الضار، و بالبصر يعرف طريق السلامة، و بحب الذات يتحفظ من المهلكات.

لا يغير حتى يغيروا

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾. قال المفسرون: ان هذه الآية تدل على ان القوم الذين يعيشون بنعمة المال و الأمن الجاه فإن اللّه لا يغيرها عنهم ما داموا يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة، فان عصوا زالت عنهم هذه النعمة. أما نحن فنفسر الآية في ضوء تعاليم الإسلام، و واقع الحياة، و ما يتحمله لفظ الآية من معنى .. أما تعاليم الإسلام فمن أهمها وجوب جهاد النفس إذا مالت الى المحرمات و الموبقات، أو رضيت بالذل و الفقر، و الجهاد بالنفس و المال في سبيل العدل و التحرر من الظلم و الرق .. و ليس من شك ان من استنكف عن الهوان، و استهان بالحياة و أبى إلا الكرامة أو الموت شمله اللّه بعنايته، و أخذ بيده إلى ما يبتغيه و يهدف اليه. و من خلد إلى الراحة و الكسل مهما كانت نتائجه يخذله اللّه، و يكله الى ضعفه، و لا ينظر اليه أو يسمع له، و ان ملأ الدنيا تضرعا و بكاء، و عبادة و دعاء. و بهذا يتضح معنى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ، و انه جلت عظمته يبقي الإنسان في البؤس و الهوان، ما دام في جموده و ركوده، لا يقاوم باطلا، و لا يحرك ساكنا للتخلص مما هو فيه .. أجل، ان اللّه لا يغير ما بنا من فقر حتى نعتقد ان الفقر من الأرض لا من السماء، و حتى نكافح و نجاهد ضد الاستغلال و الاستثمار، و حتى نقيم المصانع، و ننشىء المزارع، و اللّه لا يغير ما بنا من جهل حتى نبني الجامعات و المختبرات، و اللّه لا يغير ما بنا من عبودية حتى نثور على الظالمين و المستبدين، و اللّه لا يغير ما بنا من شتات حتى نخلص النوايا، و نزيل ما بيننا من الحدود و الحواجز.

﴿ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴾. المراد بالسوء هنا العذاب، و متى أراده اللّه لإنسان أو لفئة فلا منجى مما أراد الا اليه، و هو عادل لا يريده الا لمن يستحقه، و الوالي من صفات اللّه لأنه يلي الأمور و يقوم عليها بالعناية و التدبير.

[الآيات ١٢ الى ١٥]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ﴿١٢﴾ وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿١٤﴾ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ﴿١٥﴾

اللغة

السحاب الثقال لأنها مثقلة بالماء. و المحال بكسر الميم الكيد، يقال: ما حله مماحلة إذا كاده و مكر به، و المراد به هنا ان اللّه سبحانه شديد القوة. و الظلال جمع ظل، و هو خيال الشيء. و الغدو جمع غدوة، و الغدوات جمع غداة، و هي الصباح. و الآصال جمع أصيل و هو المساء ما بين العصر و المغرب.

الإعراب

خوفا و طمعا مفعول من أجله عند أبي البقاء، و مصدر وقع موقع الحال من الخطاب في يريكم عند الطبرسي. و كباسط متعلق بمفعول مطلق محذوف أي الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء. و ليبلغ منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المجرور باللام متعلق بباسط، و فاعل يبلغ ضمير مستتر يعود الى الماء. و طوعا و كرها قائمان مقام المفعول المطلق أي سجودا طوعا و كرها، أو في موضع الحال أي طائعين و مكرهين. و ظلالهم معطوف على من في السموات. و بالغدو متعلق بيسجد.

المعنى

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ﴾. ان اللّه سبحانه خلق الكون، و للكون خصائص و سنن لها آثارها و ظواهرها، و منها البرق و الرعد و السحاب و الصواعق، و ما الى ذلك مما يشاهده العالم و الجاهل، و المؤمن و الملحد. و لا يعرف شيئا من حقائقها و طبيعتها الا أهل الاختصاص .. و أسندها سبحانه اليه، و لم يسندها الى الأسباب الكونية المباشرة، أسندها اليه من باب اسناد الشيء الى سببه الأول، و الغرض التذكير بأنه سبب الأسباب، و اليه وحده ترجع الأمور كلها. و قوله تعالى: خَوْفاً وَ طَمَعاً، اشارة الى ان البرق قد يكون نذيرا بالصواعق، و قد يكون بشيرا بالغيث، فيخاف الإنسان من ذاك، و يأمل بهذا في آن واحد.

﴿ وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾. المراد بتسبيح الرعد ما فيه من الدلالة على قدرة اللّه و عظمته، تماما كدلالة الكتابة على الكاتب، و البناء على الباني، و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: ﴿ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٤٤ الاسراء). أي يدل عليه، و بتعبير ثان ان كل فعل حسن و متقن فهو يدل على فاعله بطبعه و وضعه، و يحمده و يثني عليه بلسان حاله .. و ليس من شك ان كل ما في الكون متقن غاية الإتقان فهو يدل على خالقه بوضعه و يثني عليه بلسان حاله .. و من الطريف قول بعض المتصوفة: ان الرعد صعقات الملائكة، و البرق زفرات أفئدتهم.

﴿ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ﴾. و تسأل: ان كلا من الصواعق و الزلازل ظاهرة من ظواهر الطبيعة و سننها .. و من الواضح ان الطبيعة عمياء لا تميز بين الأنبياء و الأشقياء، و تعم الجميع بخيرها و شرها، لا فرق عندها بين أشد المكروبات فتكا و إيذاء، و بين أكثر الناس عبقرية و صلاحا، مع ان قوله تعالى: فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ، يشعر بالفرق؟.

الجواب: المراد بالصواعق هنا العذاب الذي أنزله سبحانه على الذين أصروا على الشرك، و عاندوا أنبياءهم و رسلهم كقوم عاد و ثمود بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ ﴾ (١٣ فصلت)، و قوله: ﴿ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (١٥٣ النساء).

و تقدم أكثر من مرة ان القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض.

﴿ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾. ضمير «هم» يعود الى المشركين، و المعنى ان هؤلاء يجادلون في قدرة اللّه و عظمته، و في محمدﷺ و نبوته، و البعث و إمكانه، يجادلون و يكابرون مع ظهور الدلائل على قدرة اللّه، و المعجزات الباهرة على نبوة محمدﷺ و نزول العذاب على من جحد و أنكر البعث و الحساب ﴿ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ ﴾ أي شديد القوة و البطش بأعدائه و أعداء أوليائه. و بالاختصار المشركون يجادلون بالقول، و اللّه يبطش بالفعل «ان بطش ربك لشديد».

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾. ان اللّه هو الحق، فمن عمل له، و توكل عليه أجزل له الثواب، و من عصى و تمرد حق عليه العقاب، و من دعا غيره كالأصنام و نحوها فقد دعا باطلا و سرابا، و حجرا و جمادا لا يضر و لا ينفع ﴿ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾ تماما كالظامئ يحسب الدخان سحابا، و السراب ماء، فيمد كفيه ليملأهما بالماء، و يفتح فاه ليشرب و يبرد من غلته، و إذا بالآمال تتبخر الى حسرات و زفرات.

﴿ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً ﴾. مر نظيره مع التفسير في الآية ٨٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠١.

﴿ وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ﴾. الظل خيال الجسم الذي يلازمه و يتحرك بحركته، تماما كصورة الشيء في المرآة، و خص سبحانه الغدوات و العشايا بالذكر لأن الظل يطول و يمتد في هذين الوقتين، و المعنى ان من في السماء و الأرض يسجد للّه، و كذلك ظلالهما تسجد له.

و تسأل: ان الظل ما هو بشيء في ذاته، و اسمه يدل عليه، و انما هو تبع لصاحبه، و لذا يضرب المثل به على العدم و اللاشيء، فكيف جعله اللّه طرفا مقابلا لصاحبه، و عطف أحدهما على الآخر.

و أجاب الصوفية بأن المراد بمن في السموات و الأرض الأجسام، و بالظلال الأرواح .. و الذي نفهمه نحن ان الظلال كناية عن التعميم لكل شيء، و ان كل ما في الكون يسجد للّه، أي يقر بوجوده من باب دلالة المصنوع على الصانع، حتى الظل يسجد له لو كان شيئا مذكورا.

[آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

الإعراب

أم هل «ام» هنا منقطعة بمعنى بل و همزة الاستفهام، أي بل أهل تستوي الظلمات الخ و همزة الاستفهام تغني عن هل، و لكنهما تجتمعان في كلام العرب مثل أهل كان كذا. و مثلها أم جعلوا أي بل اجعلوا و الاستفهام للإنكار.

المعنى

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾. بعد ان ذكر سبحانه ان كل ما في الكون خاضع لقدرته عاد الى المشركين، و سألهم بلسان نبيه الكريم: من الذي خلق الكون بأرضه و سمائه؟. هل خلقه اللّه أو أصنامكم التي تعبدون؟. و لما كان السؤال يحمل معه الجواب، و لا يستطيع المسئول إنكاره أمر اللّه محمدا ان يجيب عنهم ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾.

﴿ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا ﴾. مرة ثانية، و تأكيدا للحجة يأمر اللّه محمدا ان يقول للمشركين: انكم تعبدون أحجارا لا تملك لنفسها ضرا و لا نفعا فكيف تملك ذلك

لغيرها؟ .. و ليست هذه الآية ردا على المشركين وحدهم بل هي رد أيضا على من قال: ان في عقول الناس غنى عن إرسال الرسل و إنزال الكتب من السماء، فلقد كان عبدة الأحجار، و ما زالوا من أهل العقول عند أنفسهم و عند كثير من الناس.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ ﴾ المراد بالأعمى الكافر لأنه لم يفرق بين الذي لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و بين مالك الضر و النفع .. و المراد بالبصير المؤمن الذي يفرق بينهما ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ ﴾ الظلمات كناية عن الكفر، و النور كناية عن الإيمان، قال تعالى: ﴿ كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١ ابراهيم) أي من الكفر إلى الإيمان.

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾. هذا رد على المشركين، و خلاصته ان الأحجار التي تعبدونها لا تخلق شيئا مثل خلق اللّه كي تقولوا: اللّه يخلق، و الأصنام أيضا تخلق مثله تماما، و إذا كان اللّه مستحقا للألوهية و العبادة فهي أيضا تستحق الألوهية و العبادة، و التوضيح فيما يلي.

عقول الناس لا تغنيهم عن دين اللّه

تنقسم معرفة الإنسان إلى قسمين: فطرية ذاتية، و نظرية اجتهادية، و الفطرية هي التي لا تحتاج إلى جد و اجتهاد، بل تحصل تلقائيا بمجرد التصور، كالعلم بأن النور غير الظلام، و العمى غير البصر، و الطول غير القصر، و الحجر مخلوق غير خالق، و يشترك في هذه المعرفة العالم و الجهل على السواء، و من أخطأ فيها فهو غير معذور.

أما المعرفة النظرية الاجتهادية فلا تحصل تلقائيا و بمجرد التصور، بل تحتاج إلى إعمال الفكر و الجد و الاجتهاد، كالعلم بأن الماء بسيط أو مركب، و ان هذا المرض من الأمراض المعدية أو غيرها، و يسمى هذه النوع بالقضايا النظرية التي تختلف فيها الأنظار باختلاف الأشخاص و مواهبهم و معارفهم، و الخطأ فيها مغتفر لصاحبه إذا كان بعد الجد و بذل الجهد، لأن ادراك الصواب في كل شيء متعذر أو متعسر. و الأصنام التي عبدها المشركون لا شبه بينها و بين الإله في وجه من الوجوه من قريب أو بعيد كي يعذر من شك أو احتمل انها شريكة للّه في خلقه، كيف و قد بالت عليها الكلاب و الثعالب؟. فعبادتها أكثر قبحا و سفها من وصف الظلام بالنور، و العمى بالبصر.

و تسأل: لا ريب في ان المعرفة منها فطرية لا يختلف فيها اثنان، و منها اجتهادية يعذر فيها المخطئ، و ان نفي الألوهية عن الأحجار من البديهات دون النظريات كما قلت .. و لكن المشركين قد عبدوها بالفعل، و كانوا عقلاء في تصرفاتهم، فما هو التعليل؟

الجواب: ان فريقا منهم عبدها على حرف، و بقصد الكسب و المنفعة، و فريقا آخر عبدها تقليدا بعامل التلقين و الوراثة .. و من الواضحات الفطرية ان سلطان العقل يضعف و يتراجع أمام التقاليد و العادات، بخاصة إذا طال عليها الزمن، و توارثها جيل عن جيل، و من هنا كان الدين السليم حتما و ضرورة تفرضها طبيعة الإنسان بالغا ما بلغ من العلم و العقل .. فإن كثيرا من الذين تعودوا أساليب العلم و طرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمنون بالخرافات .. قال «غوستاف لوبون» في كتاب «الآراء و المعتقدات»: «ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الأميين .. فالعالم قلما يبدو أسنى من الجاهل في الأمور التي ليست من اختصاصه، و بهذه الملاحظة ندرك السبب في ان أفضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطلا». ثم ضرب على ذلك كثيرا من الأمثلة، منها ان عالما كبيرا في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا و معه قطعة من حبل المشنوق تقيه بزعمه حسد الحاسدين، و سحر الساحرين.

﴿ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ﴾. واحد في ذاته، و في صفاته و في خلقه، و قاهر لكل معاند و عاص لحكم من أحكامه. و في ج ٢ ص ٣٤٤ ذكرنا الأدلة على وحدانية الباري، و نعطف عليها ما جاء في كتاب «دفاع عن الإسلام» تأليف «لورا فيشيا فاغليري» ترجمة الأستاذ منير البعلبكي، قالت المؤلفة: «دعا الرسول العربي الى عقيدة التوحيد، و خاض صراعا مكشوفا مع بعض النزعات الرجعية التي تقود المرء الى الشرك .. دعا محمد الناس الى قراءة كتاب الحياة، و التفكير في الكون و سننه، إذ كان واثقا بأن كل عاقل لا بد أن يؤمن آخر الأمر بإله واحد».

[الآيات ١٧ الى ١٨]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ ﴿١٨﴾

اللغة

الزبد بفتح الزين و الباء ما يعلو الماء و نحوه من الرغوة، و يسمى غثاء. و الفرق بينه و بين الفقاقيع ان هذه منتفخة كنفاخات الأطفال، و الزبد كرغوة الصابون. و الرابي العالي، أي ان الزبد يعلو فوق الماء و

الحلية تؤخذ من الذهب و الفضة. و المتاع من الحديد و النحاس و الرصاص و شبه ذلك. و الجفاء بضم الجيم الباطل. و المهاد بكسر الميم الفراش.

الإعراب

زبد مثله «زبد» مبتدأ مؤخر، و مثله صفة له، و خبر المبتدأ محذوف و هو الذي تعلق به مما يوقدون، و ابتغاء حلية مفعول لأجله ليوقدون. و كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب بيضرب. و جفاء حال من الضمير في يذهب. الذين استجابوا خبر مقدم، و الحسنى مبتدأ مؤخر. و الذين لم يستجيبوا مبتدأ، و جملة لو أن لهم خبر. و ما في الأرض اسم أن، و المصدر المنسبك فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت أن لهم الخ. و جميعا حال، و مثله عطف على اسم أن.

المعنى

في الآية السابقة قارن سبحانه بين المؤمن و الكافر، و ضرب لذلك مثلين: الأول المقارنة بين الأعمى و البصير .. فالكافر كالأعمى، و المؤمن كالبصير. المثل الثاني المقارنة بين الظلمات و النور .. و الكافر كالظلمات، و المؤمن كالنور. و في الآية التي نحن بصددها قارن جلت حكمته بين الحق و الباطل، و ضرب أيضا لذلك مثلين: الأول المقارنة بين الماء الذي يمكث في الأرض، و يحمل للناس الخير و الحياة، و بين الزبد الذي يعلو و ينتفخ طافيا على وجه الماء، ثم يقذف به السيل، و يذهب مع الريح .. و الحق كالماء النافع، و الباطل كالزبد الذي تبدده الأرياح. و هذا ما أراده سبحانه بقوله: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ﴾. و المراد بقدرها ان كل واد من الأودية يحتمل من ماء المطر بمقداره سعة و ضيقا و عمقا .. و ما زاد ينبسط على وجه الأرض. أما المثال الذي ضربه سبحانه للمقارنة بين الحق و الباطل فهو المقارنة بين المعادن تذاب في النار ليصاغ منها الحلي كالذهب و الفضة، أو يصاغ منها آنية أو آلة كالحديد و الرصاص و النحاس، و بين الزبد الذي يطفو فوق المعدن المذاب، و هذا الزبد يضمحل تماما كما يضمحل الزبد الذي يحمله السيل .. و الحق كالمعدن النافع أيا كان نوعه، و الباطل كالزبد الخبيث الذي يطفو فوق المعدن حين يذاب في النار، و هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾. فقوله: مما يوقدون معناه ان من المعادن ما يذاب في النار ليصاغ منه الزينة أو الآنية أو الآلة، و قوله: زبد مثله معناه ان للمعادن زبدا لا جدوى منه تماما كالزبد الذي يحمله السيل.

﴿ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ ﴾. أي يمثل اللّه و يصور الحق بيانا في صورة الماء و المعادن اللذين ينتفع بهما، و الباطل في صورة الزبد الذي لا ينتفع به ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ ﴾ و هو الذي يحمله السيل أو

يطفو على المعادن إذا أذيبت ﴿ فَيَذْهَبُ جُفاءً ﴾ باطلا ﴿ وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ و هو الماء و المعادن ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ للخير و الحياة ﴿ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ ﴾ للحق و الباطل و غيرهما. ان كثيرا من المعاني يصعب إدراكها على الافهام، و بالخصوص عند السواد الأعظم، و التمثيل من أجدى الوسائل لتوضيحها و الكشف عنها، بالاضافة الى ان التمثيل كثيرا ما يضيف على البيان سموا و جمالا، و قد ضرب اللّه الأمثال في العديد من آياته البيانية، منها تمثيله الكفر و الايمان بالظلمات و النور، و العمى و البصر، و تمثيله في هذه الآية الحق بالماء و المعدن، و الباطل بالزبد. و تصور هذه الآية الإسلام في حقيقته، و الأصح تصور المسلم الحق في انه الذي ينفع الناس، و يستمر نفعه لهم و يدوم، تماما كالذي يحيي الأرض بعد موتها، و كالمعدن الصلب تقام به المعامل و المصانع تنتج الآلات و الأدوات، و تبنى الحضارات، فتقرب البعيد، و تنشئ الأساطيل، و تغزو الفضاء، و تحرث الأرض، و تملأ الدنيا خيرا و أمنا و رخاء .. و النتيجة الحتمية لذلك ان كل من نفع و أصلح و عمل من أجل حياة الإنسان و حريته و أمنه و هنائه فانه يلتقي بعمله هذا مع أهداف الإسلام، و ان لم يكن مسلما، لأنه تماما كالماء و المعدن اللذين ضربهما اللّه مثلا للحق .. و ان كل من عمل لشقاء الإنسان فما هو من الإسلام في شيء، و ان صام الدهر، و وصل صلاة الليل بصلاة الفجر.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى ﴾. أي لدعوة ربهم، و هي العمل لمنفعة الناس، و لحياة أفضل، أما الحسنى فالمراد بها الأجر و الثواب، و ان أهل الحق ينتفعون به، تماما كما تنتفع الأرض بالماء.

﴿ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ و هم الذين لا خير فيهم كالزبد ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ ﴾. تقدم نظيره في الآية ٥٤ من سورة يونس، و الآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦.

[الآيات ١٩ الى ٢٥]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ﴿٢٠﴾ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ ﴿٢١﴾ وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ

﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

اللغة

الدرء الدفع. و العدن بسكون الدال الاقامة، يقال: عدن في المكان إذا أقام فيه. و العقبى من العاقبة، و هي النهاية التي تؤدي اليها البداية ان خيرا فخير، و ان شرا فشرّ.

الإعراب

أ فمن يعلم الهمزة للاستفهام، و المراد به الإنكار، و من مبتدأ، و خبره كمن هو أعمى. و انما كلمتان: «أن» التي تنصب الاسم و ترفع الخبر، و «ما» الموصولة. و الذين يوفون عطف بيان أو بدل من أولو الألباب. و الذين يصلون و ما بعده من الموصولات مبتدأ، و الخبر جملة أولئك لهم عقبى الدار، و لهم متعلق بعقبى. و صبروا ابتغاء وجه ربهم «ابتغاء» مفعول من أجله. و سرا قائم مقام المفعول المطلق أي إنفاقا سرا و علانية معطوف عليه، و يجوز أن يكونا قائمين مقام الحال أي مسرّين و معلنين. و جنات عدن بدل من عقبى الدار. و سلام عليكم مبتدأ و خبر، و الجملة مفعول لقول محذوف أي يقولون: سلام عليكم. و بما صبرتم «ما» مصدرية، و المصدر المنسبك متعلق بما تعلقت به عليكم.

المعنى

﴿ أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴾. بعد أن شبّه سبحانه الكافر بالأعمى، و المؤمن بالبصير في الآية ١٦، ثم شبّه الحق بالماء و الباطل بالزبد في الآية ١٧- بعد هذا ذكر هنا ان من يؤمن بمحمد فهو البصير المحق، و من كفر به فهو الضال الأعمى، و أخبر تعالى عن هذه الحقيقة بصيغة الاستفهام لتقريع المنكر و توبيخه ﴿ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴾ الذين يصغون لصوت العقل، و من لا يصغي اليه الا إذا وافق هواه فهو كمن لا عقل له. ثم ذكر سبحانه أوصاف أولي الألباب، و هي تدل بوضوح على ان المراد بأولي الألباب المؤمنون المتقون.

١- ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾. و كل ما قام عليه الدليل فهو عهد اللّه، و على الإنسان أن يعمل بمؤداه .. و لكن الأبالسة يحرّفون الحقائق على أهوائهم، ثم ينسبون هذه الأهواء الشيطانية الى اللّه و الحق .. تعالى اللّه عما يصف المفترون ﴿ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ﴾ هذا تأكيد لقوله: يوفون بعهد اللّه، حيث يلزم من الوفاء بالعهد انتفاء نقضه و نقيضه.

٢- ﴿ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾. ذكر المفسرون أقوالا في تفسير ما أمر اللّه به أن يوصل، و أقربها الى روح الإسلام و مبادئه قول من قال: ان المراد به مناصرة الإنسان لأخيه الإنسان، و التعاون معه على كشف الضر عنه، و جلب النفع له قريبا كان أو بعيدا.

٣- ﴿ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ ﴾ عمليا لا نظريا، و فعلا لا قولا فقط، قال الإمام علي: بالايمان يستدل على الصالحات، و بالصالحات يستدل على الايمان.

٤- ﴿ وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾. يجاهدون في سبيل اللّه، و يصبرون على جراح الجهاد و آلامه، لا يبتغون جزاء و لا شكورا الا مرضاة اللّه وحده.

٥- ﴿ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ ﴾ التي أولها التكبير: اللّه أكبر، لا كبير سواه كائنا من كان، و الكل لديه سواء، و آخرها التهليل و التسليم، لا إله الا هو و لا يعبد سواه، فلا المال و لا الجاه و لا الأنساب آلهة تعبد، و لا قوة يخضع لها الا قوة اللّه وحده لا شريك له.

٦- ﴿ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً ﴾. المال هو المحك .. أنظر ما كتبناه تحت هذا العنوان في تفسير الآية ٩٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٧.

٧- ﴿ وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾. المراد بالحسنة هنا العفو و الصفح، و بالسيئة الحق الخاص يكون بين اثنين كالقصاص، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١٧٨ البقرة). أما حق اللّه فلا هوادة فيه، قال تعالى: ﴿ وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٢ النور).

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾. كل الصالحين و الطيبين يدخلون الجنة، و إذا كانوا في الدنيا أرحاما و أحبابا يزدادون فرحا و سرورا بجمع الشمل، و يتذكرون أيام الدنيا، و يشكرون اللّه على الخلاص من همومها و أعبائها، و إذا اختلفت الأعمال في الخير و الشر تقطعت الأنساب و الأسباب بينهم يومئذ، و لا يتساءلون: «فريق في الجنة و فريق في السعير».

﴿ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ باب سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾. يزور الملائكة أهل الجنة تكريما و تعظيما. و قوله: بما صبرتم يومئ إلى أن الجنة محرمة إلا على من جاهد و صبر و تحمل متاعب الجهاد و مشاقه. قال الإمام علي عليه السلام: «الجنة حفت بالمكاره، و النار حفت بالشهوات، و اعلموا انه ما من طاعة اللّه شيء إلا يأتي في كره، و ما من معصية اللّه شيء إلا يأتي في شهوة».

﴿ وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ ﴾. بعد ان ذكر سبحانه الصالحين و أوصافهم، و ما أعد لهم من حسن الثواب و المآب ذكر الفاسدين و المفسدين .. و بالتعبير الدارج بعد أن ذكر أنصار الثورة على الفساد ذكر أنصار الثورة المضادة، و طبيعي أن يكون هؤلاء في صفاتهم و أعمالهم على الضد من أولئك، فالصالحون يوفون بعهد اللّه، فيعملون بوحي من العقل و الضمير و بكل ما دل عليه الدليل و المفسدون ينقضون عهده جل و علا فيعملون بوحي من الشيطان، يلبسون الحق بالباطل، و يكتمون الحق و هم يعلمون ﴿ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾. فيتولون الطغاة المجرمين، و يناصرونهم على الأحرار الطيبين، تماما على العكس مما أمر اللّه به، و نهى عنه.

﴿ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بمظاهرة الظالم الغاشم، و إثارة الفتن و القلاقل، و تضليل السذج الأبرياء، و اشاعة التفسخ و الانحلال، و نشر الجرائم و الموبقات، و نحو ذلك من أنواع الفساد و الضلال ﴿ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾. و إذا كان الأشرار في أعمالهم على العكس من الأخيار فمن الطبيعي أن يكونوا أيضا على العكس في الجزاء و الثواب .. للأخيار الجنة و نعم الدار، و للأشرار جهنم و بئس القرار.

[الآيات ٢٦ الى ٢٩]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

اللغة

يبسط يوسع. و يقدر يضيق. و المتاع ما فيه متعة و لكنها قليلة. و الانابة الرجوع الى الحق بعد الضلال، و يقال: انتاب فلان القوم إذا أتاهم المرة تلو المرة. و طوبى من طاب، و هي تأنيث الأطيب. و المآب المنقلب.

الإعراب

و ما «ما» نافية، و الحياة مبتدأ، و الدنيا صفة، و في الآخرة على حذف مضاف أي في جنب الآخرة، و المجرور متعلق بمحذوف حالا من الحياة، و متاع خبر. و لولا أداة طلب بمعنى هلا. و الذين آمنوا الأولى في محل نصب بدل من ﴿ مَنْ أَنابَ ﴾. و الذين آمنوا الثانية كلام مستأنف، و محلها الرفع مبتدأ أول، و

طوبى مبتدأ ثان، و لهم خبره، و هو و خبره خبر المبتدأ الأول. و حسن مآب عطف على طوبى، و يجوز أن تكون طوبى خبر الذين و لها متعلقة بها.

الإنسان و الرزق

عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٣١ تكلمنا مفصلا عن الرزق و أسبابه بعنوان: هل الرزق صدفة أو قدر؟. و ذكرنا هذه الآية: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ ﴾ فيما ذكرنا من الآيات، و أيضا تعرضنا لهذا الموضوع عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤، و الآن نعود اليه بأسلوب آخر بالنظر لأهميته. للإنسان صفات كثيرة، منها ذاتية تلازمه و لا تنفك عنه بحال، مثل أن يكون طويلا أو قصيرا، و ابن غني أو فقير، و منها غير ذاتية مثل أن يكون فلاحا أو تاجرا أو موظفا أو طبيبا و نحو ذلك. و للغنى أسباب، منها النسب أي الغنى عن طريق الميراث و هو مشروع في الدين، و ان لم يدخل تحت قدرة الإنسان، و منها الاحتكار و الاستغلال كالربا و الغش و السلب و النهب، و التجارة بالمحرمات، و هذا حرام، ما في ذلك ريب، و منها كد اليمين و عرق الجبين، كالزراعة و الصناعة و ما اليهما، و هذا خير الأسباب و أفضلها عقلا و شرعا. و للفقر أسباب أيضا: منها الإهمال و الكسل، و تقع التبعة فيه على الكسول المهمل، و منها فساد الأوضاع التي تجعل القيادة و الزعامة للخونة و الأقوياء، و تبعد الشرفاء و الضعفاء. و هذا السبب يحكم العقل و الشرع بتحريمه و عدم شرعيته. و بكلمة ان كلا من الفقر و الغنى له أسبابه المحسوسة المشاهدة بالعيان. و بهذا يتبين معنا ان الفقر و الغنى من صنع الأرض، لا من صنع السماء في الأعم الأغلب .. حيث يشذ بعض الموارد عن الأسباب المألوفة، فيسميها البعض بتوفيق من اللّه، و البعض الآخر بالصدفة أو الحظ .. و لكن لا أحد يستطيع القول: ان القضاء و القدر يعاكس بعض الناس في كل شيء، و يحول أبدا و دائما بينهم و بين ثمرة جهدهم و أعمالهم، و انه يحالف آخرين و يناصرهم في كل شيء، و يحقق لهم أكثر مما يأملون، و فوق ما كانوا يتصورون من غير سعي وجد .. لا أحد يستطيع أن يثبت ذلك، و الا بطلت المقاييس، و تخلفت المسببات عن أسبابها، و كان العمل و التحفظ و الإتقان ألفاظا بلا معنى.

و تسأل: ان قولك هذا لا يتفق مع ظاهر الآية، و هي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ ﴾؟.

الجواب: ان الناس في حياتهم و واقعهم فريقان: فريق موسع عليهم في الرزق، و فريق مضيق عليهم فيه، و كل من الغنى و الفقر يتولد من أسبابه الخاصة التي أشرنا اليها، و قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ ﴾ هو وصف لواقع الناس، و حكاية لحالهم التي هم عليها، فكأنه يقول: الناس فريقان:

غني و فقير .. و أضاف سبحانه الفقر و الغنى اليه لتنبيه الأذهان انه تعالى هو خالق الكون الذي فيه شقاء و هناء، و بؤس و نعيم .. و إذا سأل سائل: و لما ذا لم يخلق كونا لا شقاء فيه و لا بؤس أحلناه على ما كتبنا بعنوان: «ليس بالإمكان أبدع مما كان» عند تفسير الآية ٧٨ من النساء ج ٢ ص ٣٨٤.

﴿ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ ﴾. تقدم نظيره مرات، منها في الآية ١٨٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٤، و نعطف على ما ذكرنا هناك ان فريقا من الناس يفرحون بالمال لأنه يستر عيوبهم و قبائحهم، و كثير منهم لا يرون الفضيلة و الخير الا في المال و الثراء، و المعروف عن الأمريكيين انهم لا ينظرون الى شيء الا من خلال الدولار، و به وحده يقيسون عظمة الرجال، حتى العلماء و العباقرة قيمتهم ما في جيوبهم، لا ما في رؤوسهم.

﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾. مر نظيره في الآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩، و الآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤، و الآية ٢٠ من سورة يونس و بالحرف الواحد من السورة التي نحن فيها الآية ٧.

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ ﴾. أنظر «الإضلال من اللّه سلبي لا ايجابي» ج ٢ ص ٣٩٩ عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، و «الهدى و الضلال» ج ١ ص ٧٠ عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾. لما ذكر سبحانه أهل المال، و فرحهم الناشئ عن اطمئنانهم الى عيشهم و حياتهم ذكر المؤمنين، و انهم هم الذين يطمئنون بذكر اللّه .. و الاطمئنان معنى زائد على أصل الايمان، و هو ثبات الايمان و استقراره، أو هو أعلى درجاته و مراتبه، فقد جاء في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة: ﴿ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. و في الآية ١٠٦ من سورة النحل: «و قلبه مطمئن بالايمان». أي ثابت و مستقر. أما الذكر فليس المراد به مجرد الكلام الملفوظ المسموع، و انما المراد به الذكر الذي يزيد الذاكر يقينا باللّه، و ثقة بوعده و وعيده، فإذا لم يتحقق هذا الأثر. فلا يعد التلفظ بالتقديس و التسبيح ذكرا حقيقيا .. و الذكر الذي يزيد الذاكر يقينا و ثقة هو المراد من قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (١٥٢ البقرة).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ ﴾. المراد بطوبى الجنة، و المآب المرجع و المنقلب، و الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ﴾ (٢٥ البقرة).

[الآيات ٣٠ الى ٣١]

كَذٰلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴿٣١﴾

اللغة

خلت مضت. و متاب اسم مصدر من تاب. و سيّرت به الجبال أي سارت بسببه. و قطعت به الأرض شققت أنهارا و عيونا. و كلّم به الموتى جعلها تتكلم. و ييئس يعلم في لغة هوازن. و قارعة مصيبة.

الإعراب

هو ربي مبتدأ و خبر، و جملة لا إله إلا هو خبر ثان. و لو ان قرآنا جواب لو محذوف دل عليه الكلام، و التقدير لكان هذا القرآن. و المصدر المنسبك من ان لو يشاء مفعول ييئس. و بما صنعوا «ما» مصدرية أي بصنعهم، و يجوز أن تكون موصولة أي بالذي صنعوه. و فاعل تحل ضمير مستتر يعود الى قارعة. و قريبا حال من هذا الضمير المستتر.

المعنى

﴿كَذٰلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾. الخطاب موجه لمحمدﷺ، و ضمير عليهم يعود إلى الأمة التي أرسل اليهم. و قد أرسل اللّه من قبله الى الأمم الخالية رسلا مبشرين و منذرين، و للغاية نفسها أرسل محمدا، فأي بدع في ذلك؟. فما هم بأول قوم أرسل اللّه اليهم رسولا، و لا هو بأول رسول يتلو على الناس ما أوحي اليه من ربه ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ﴾. هذا هو إيمان محمدﷺ، و هذه هي دعوته: يؤمن باللّه وحده، و يلتجئ اليه في جميع أموره، و لا يرى لغيره من سلطان، و يدعو الناس جميعا الى هذا الايمان، و هي دعوة تدل على نفسها بنفسها.

تفكير الطغاة

﴿وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾. مر نظير هذه الآية في سورة الأنعام، و تكلمنا حولها مفصلا بعنوان طراز من الناس في ج ٣ ص ٢٤٨. و

أيضا يأتي مثلها في الآية ٩٠ و ما بعدها من سورة الاسراء، و نعطف على ما قدمناه ان هذه الآية تصور الطريقة التي يفكر بها الطغاة الذين تقوم حياتهم على استغلال الضعفاء و استعبادهم .. فلا الفطرة و العقل، و لا الحس و المشاهدة، و لا الخوارق و المعجزات، و لا شيء يغير من عتو الطغاة المستغلين و ضراوتهم .. و الدافع الأول و الأخير هو إخلاصهم لوجودهم و كيانهم الذي يقوم على السلب و النهب .. و مع هذا يريدهم محمدﷺ أن يعترفوا به و بالقرآن .. و لما ذا يعترفون؟. ألان الجبال تسير- بكتاب من السماء- بلا عجلات، و تكلمهم الأموات؟. ثم ما ذا؟. و أية جدوى لهم في ذلك، بل و في رؤية اللّه وجها لوجه؟. هل تزداد أرباحهم، و تكثر أموالهم؟.

هذا هو تفكيرهم، و هذه هي اللغة التي يفهمونها و يصغون اليها، و لا يستمعون إلى غيرها .. لغة الكسب و الربح الجنيه و الدولار، اما الحق و العدل، اما المنطق و العقل فحديث خرافة يصدقه الأطفال، و يؤمن به الجهال .. و هل بعد هذا يسأل سائل: كيف لم يؤمن الطغاة بمحمد، و دعوته دعوة العدل و الإحسان؟.

و أي ذنب أعظم من هذه الدعوة التي تستأصل الظلم و الفساد من الجذور؟. و أي عاقل يوقع بيده الحكم بإعدامه؟.

بهذه الطريقة وحدها يفكر الذين تقوم حياتهم على السلب و النهب في كل زمان و مكان .. فكر بها أبو جهل و أبو سفيان في عهد محمدﷺ، و فكر بها في عصرنا هتلر و موسوليني، و تفكر بها اليوم و في عصر الفضاء الدول الاستعمارية بقيادة أمريكا، و كفى دليلا على ذلك انها تضغط بكل قواها على أعضاء الأمم المتحدة كي يتجاهلوا أية قضية تمت الى العدالة بسبب، فإذا فشلت في هذا الميدان وقفت موقفا صريحا و معاديا لكل شعب يطلب العدل و الانصاف من المعتدين عليه، و ناصرت الظلم و الطغيان أينما كان و يكون، و سواء أجاء من إسرائيل أم البرتغال أم الحكومة العنصرية في روديسيا و جنوب افريقيا، أو غيرها .. و السر هو اخلاص الولايات المتحدة لطبيعتها أو لنظامها كقائد للاستعمار الحديث في هذا العصر، و مصير هذه القيادة تماما كمصير النازية الهتلرية و غيرها، و قد ظهرت الدلائل في فيتنام، أما الاستياء من سياسة المستعمرين فقد عم الشرق و الغرب و لن يمر هذا الاستياء دون أن يترك أثره الفعال. و كنت من قبل أعجب من بعض الناس كيف يستهينون بالطيبين المخلصين، و لا يقدرونهم حق قدرهم، و كيف يرونهم كغيرهم من الأناس العاديين، حتى و لو أتوا بالعجب العجاب، و ضحوا بأعز ما يملكون من أجل احقاق الحق، عجبت من ذلك حتى وصلت بالتفسير الى هذه الآية فأدركت ان هذا التفكير ليس مقصورا على من أفسد و طغى بالفعل، فإن كثيرا من الناس قد أسقطوا من حسابهم جميع الفضائل و

القيم، و لم يقيموا وزنا الا للكسب و الربح تماما كغيرهم من الذين حاربوا محمدا، و وقفوا في هيئة الأمم و مجلس الأمن في جانب إسرائيل و عدوانها سوى ان هؤلاء تمهد لهم السبيل الى الفساد و الطغيان فسلكوه، و لما عجز عنه الذين يستهينون بالخير و أهله وقفوا موقف الحياد.

﴿ أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾. قال الطبري: اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله تعالى: أ فلم ييئس .. ثم قال: و الصواب إن تأويل ذلك أ فلم يتبين، و نقل هذا التفسير عن جماعة كثر، منهم الإمام علي عليه السلام. و نحن من الذين يؤمنون بأن أهل البيت أدرى بالذي فيه. و مهما يكن فإن المقصود بالذين آمنوا صحابة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله حيث تمنوا متلهفين ان يؤمن المشركون باللّه و رسوله، فقال لهم جلت عظمته: إلى متى تطمعون في إيمان المشركين؟. ألم تعلموا و تتبينوا انهم لا يؤمنون بحال حتى و لو كلمهم الموتى، و سارت الجبال؟ .. دعوهم و طغيانهم، و لو شاء اللّه أن يلجئهم الى الايمان لفعل، و لكن حكمته تعالى قضت بأن يترك الإنسان و ما يختاره لنفسه حرصا على حريته و انسانيته، و لو سلبه الحرية و الارادة لم يكن شيئا مذكورا، و لما استحق مدحا أو ذما، و لا ثوابا أو عقابا .. انظر تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿ وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨ هود).

﴿ وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾. المراد بالذين كفروا من كذّب بنبوة محمد صلى الله عليه و آله، و المعنى انه تعالى لا يترك في الدنيا هؤلاء المكذبين من غير تأديب، بل ينزل عليهم الكوارث و البلايا الحين بعد الحين بسبب موقفهم من رسول اللّه صلى الله عليه و آله، أو ينزل مصيبة من حولهم تملأ قلوبهم خوفا و رعبا، و يتابع ذلك حتى ينجز اللّه وعده لنبيه بالنصر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴾. كيف؟. و وعده أصدق الوعد، و الصحابة و كل مؤمن على ثقة بأن اللّه منجز وعده، و ناصر جنده لا محالة.

[الآيات ٣٢ الى ٣٤]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ ﴿٣٤﴾

اللغة

أمليت أمهلت. و قائم على نفس أي رقيب عليها و مدبر لأمورها.

الإعراب

كيف خبر مقدم لكان، و عقاب اسمها، و الأصل عقابي. و الجملة مفعول لفعل محذوف أي فانظر كيف الخ. أ فمن «من» اسم موصول مبتدأ و الخبر محذوف أي كمن ليس كذلك. و هو قائم مبتدأ و خبر، و الجملة صلة الموصول. أم تنبئونه «أم» منقطعة بمعنى بل و الهمزة أي بل أ تنبئونه. و من يضلل «من» مبتدأ و فما نافية، و له متعلق بمحذوف خبرا لهاد، و من الداخلة عليه زائدة اعرابا، و الجملة خبر من يضلل اللّه.

المعنى

﴿ وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴾. يقول سبحانه لنبيه محمدﷺ: اصبر و امض في دعوتك، و هون عليك أمر الذين كذبوك و سخروا منك و ابعدوا في اقتراحاتهم عليك، فلقد فعل فعلهم من كان قبلهم، فأطلت لهم و مددت الأجل، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، و هذه بالذات عاقبة الذين كذبوا برسالتك. و ما أرسل اللّه نبيا الا و هو مزود بأمرين: العلم بالأدلة الكونية و العقلية على وجود الخالق و وحدانيته، و معجزة تظهر على يده، و تدل على نبوته، و بالأولى يقنع الناس بالتوحيد، و بالثانية يقنعهم بأنه رسول من ربه، و كان الذين لا يؤمنون الا بمنافعهم و أرباحهم يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و أدلتهم و معجزاتهم، و اللّه يمد لهم الأجل ليؤبوا الى رشدهم، و ليعذر اليهم بالإملاء، كما اعذر اليهم بالحجج.

﴿ أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ﴾ يحرسها و يراقبها و يحصي عليها كل شيء و يجازيها بالثواب ان أحسنت، و بالعقاب ان أساءت، أ فمن يكون بهذه الصفات تجعل الأحجار شريكة له؟ .. ﴿ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ ﴾ لا يشبهونه بشيء ﴿ أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٧ النحل)؟ .. ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي اذكروا أيها المشركون صفة واحدة لأصنامكم تستحق بها العبادة .. و هذا التحدي يشبه السخرية و التهكم، تماما كما لو قال الجبان: أنا أشجع الشجعان. فتقول له: اذكر لنا شاهدا واحدا على شجاعتك.

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾. اللّه يقول: لا شريك لي. و هم يقولون له، بل لك شركاء كثيرون .. و معنى قولهم هذا في واقعه ان اللّه لا يعلم و هم يعلمون، و انهم يخبرونه بشيء يجهله .. تعالى اللّه عما يصفون، و بتعبير أهل المنطق إذا وجد الملزوم وجد اللازم، و إذا انتفى اللازم انتفى الملزوم- إذا

وجدت الشمس وجد النهار، و إذا انتفت الشمس فلا نهار، و إذا انتفى النهار فلا شمس أيضا ظاهرا و واقعا .. و كذلك إذا وجد الشريك علم اللّه بوجوده حتما، و حيث ان اللّه لا يعلم به فلا شريك، و الا يلزم جهله تعالى اللّه عن ذلك. و انما خص سبحانه الأرض بالذكر مع انه تعالى لا شريك له في الأرض و لا في السماء، لأن الحديث يتعلق بالأصنام، و هي في الأرض لا في السماء.

﴿ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾. وضعت الكلمات لتدل على معنى موجود، و أية كلمة لا تدل على ذلك فهي شيء في الظاهر، و لا شيء في الواقع، و كلمة شركاء اللّه من هذا الباب أسماء بلا مسميات: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (٢٣ النجم)، و مرّ نظيره في الآية ٧٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٨، و الآية ٤٠ من سورة يوسف.

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾. معنى المكر في اللغة الخداع، و قد خدع المشركون بالأصنام، فظنوها شريكة للّه في خلقه، و زينت لهم أنفسهم هذا المكر و الخداع ﴿ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ بالبناء للمجهول أي ان الذي زينته له أنفسهم صدهم عن الحق و الايمان باللّه و وحدانيته ﴿ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴾. أنظر تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، فقرة «الإضلال من اللّه سلبي لا ايجابي» ج ٢ ص ٣٩٩.

﴿ لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ بالخزي و الهوان ﴿ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ لأن كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، و كل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، كما قال الإمام علي عليه السلام. ﴿ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ ﴾ يقيهم العذاب و يدفعه عنهم.

[الآيات ٣٥ الى ٣٨]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ ﴿٣٧﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ ﴿٣٨﴾

اللغة

الأكل بضم الهمزة المأكول. و المراد بالكتاب القرآن و بالذين آتيناهم الكتاب صحابة النبيﷺ لأنهم هم الذين فرحوا به عند نزوله، و المراد بالأحزاب أهل الأديان الذين تحزبوا و تعصبوا ضد الإسلام، فإنهم يكفرون ببعض القرآن و يؤمنون ببعض. و المآب المرجع. و الواقي الحافظ.

الإعراب

قال المفسرون: ان سيبويه أعرب مثل الجنة مبتدأ، و الخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة، و المعنى ان وصف الجنة هو ما ذكرناه في القرآن. و التي عطف بيان من الجنة، و العائد على الاسم الموصول محذوف أي وعد بها المتقون، و جملة تجري حال من الجنة. و أكلها دائم مبتدأ و خبر، و ظلها أي و ظلها دائم. و من الأحزاب خبر مقدم، و من ينكر مبتدأ مؤخر. و حكما حال من هاء أنزلناه، و عربيا صفة للحكم. و المصدر المنسبك من ان يأتي اسم كان.

المعنى

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها ﴾. لما ذكر سبحانه عقاب الكافرين ذكر ثواب المتقين، كما هو شأنه تعالى في المقارنة بين الضدين و المتشابهين، و ثواب المتقين الجنة بنعيمها الدائم أنهارا و ثمارا و ظلالا ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾. تلك إشارة الى الجنة، و العقبى المنقلب و المصير، و المتقون هم الذين يناصرون الحق و أهله، و يقاومون الباطل و أهله، و في بعض الأخبار: ان الايمان فوق الإسلام، و التقوى فوق الايمان، و اليقين فوق التقوى و المراد باليقين الثقة باللّه، و التوكل عليه.

﴿ وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ ﴾. و ليس المراد بالكافر هنا خصوص من جحد باللّه أو أشرك به، بل كل من عاند الحق، و هو به عليم .. فقد جاء في كثير من الأخبار ان النفاق كفر، و الرياء شرك. و قد وصف سبحانه الظالمين بالكفر في الآية ٩٩ من الاسراء: ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴾ كما وصف الكافرين و المشركين بالظلم في العديد من الآيات.

الشيعة الإمامية و الصحابة

دأب بعض المأجورين و الجاهلين على إثارة الفتن و النعرات بين المسلمين لتشتيت وحدتهم و تفريق كلمتهم، دأبوا على ذلك عن طريق الدس و الافتراء على الشيعة الامامية، و ذلك بأن نسبوا اليهم النيل من مقام الصحابة، و تأليه علي، و القول بتحريف القرآن الذي يهتز له العرش .. و ما إلى ذلك من الكذب و البهتان .. و كتبت المقالات الطوال في الرد على هؤلاء الأدعياء و العملاء، ثم وضعت في الشيعة الامامية كتاب «مع الشيعة الامامية». و «الشيعة و الحاكمون».

و «الاثنا عشرية و أهل البيت». و «الشيعة و التشيع» و هو أكبر و أضخم من الجميع، و غرضي الأول من المقالات و المؤلفات جلاء الحقيقة لمن يرغب في معرفتها، و إبطال ما قيل أو يقال حول هذه الطائفة من الافتراءات و الأكاذيب. و أشرت هنا إلى ما كتبت و ألفت في هذا الموضوع لمناسبة تتضح مما يلي: ﴿ وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾. قال أبو حيان الأندلسي و الزمخشري و الشيخ المراغي و البيضاوي و غيرهم من علماء السنة قالوا: المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بمحمد من اليهود و النصارى .. و قال الطبرسي في مجمع البيان ما نصه بالحرف: «يريد اللّه سبحانه أصحاب النبيﷺ الذين آمنوا به، و صدقوه و أعطوا القرآن، و فرحوا بإنزاله». و الطبرسي من أجل علماء الشيعة الامامية و ثقاتهم (ت ٥٤٨ ه) .. فالكثير من علماء السنة فسروا الآية بمن أسلم من أهل الكتاب، و فسرها الشيعة الامامية بصحابة الرسول الأعظمﷺ، و لو كانوا ينالون من مقام الصحابة لاتجه شيخهم الطبرسي في تفسير هذه الآية الى غير هذا الوجه .. و بهذا يتبين الدس ممن نسب اليهم هذه الفرية.

و كان ابان بن تغلب أحد الكبار في تلامذة الإمام جعفر الصادق٧، حتى ان الإمام كان يأمر الشيعة أن يأخذوا الدين عنه، و في ذات يوم سأله رجل عن الشيعة؟. و كان يدعى هذا السائل «أبو البلاد». فقال له ابان: انهم الذين إذا اختلف الناس في الرواية عن النبيﷺ أخذوا برواية علي عن النبي، و إذا اختلف الناس في قول عليعليه السلام أخذ الشيعة بقول جعفر الصادق عن علي .. فالمسألة – إذن – عند الشيعة الامامية مسألة ثقة بالرواية عن محمدﷺ لا مسألة سب و شتم أصحاب محمد .. و السر لاعتماد الشيعة على أهل البيت فيما ثبت عن جدهم ما رواه مسلم في صحيحه عن النبيﷺ باب «من فضائل علي بن أبي طالب» انه قال: «انا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي، فأجيب و أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب اللّه فيه الهدى و النور، فخذوا بكتاب اللّه، و استمسكوا به، فحث على كتاب اللّه و رغب فيه، ثم قال: و أهل بيتي أذكركم اللّه في أهل بيتي كررها ثلاثا».

﴿ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾. المراد بالأحزاب أهل الملل و الأديان الأخرى كاليهود و النصارى و غيرهم ممن أنكروا ما يخالف أهواءهم، و اعترفوا بما بوافقها من القرآن .. و من الواضح ان اعتراف هؤلاء، و انكارهم سواء، لأنه اعتراف بما يهوون، لا بالقرآن ﴿ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ ﴾. هذا هو الإسلام: لا إله إلا اللّه له الملك و اليه وحده الدعوة الى العبادة، و اليه المرجع و المصير.

﴿ وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ﴾. المراد بالحكم القرآن لأنه حكم اللّه، و ما عداه حكم الجاهلية، كما قال سبحانه: ﴿ أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥١ المائدة). و كما

أرسل اللّه كل نبي بلغة قومه فقد أرسل محمدا كذلك: ﴿ وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٤ ابراهيم). و عند تفسير الآية ٢ من سورة يوسف بيّنا السبب لنزول القرآن بلغة العرب مع ان محمدا رسول اللّه الى الناس جميعا.

﴿ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ ﴾.الخطاب لمحمد، و الضمير في أهوائهم الى الأحزاب من أهل الملل و الأديان- غير الإسلام- و اللّه يعلم ان النبي لا و لن يتبع أهواءهم .. و الغرض من هذا النهي ان يثبت و يستمر في الدعوة الى الحق، و لا يخشى في اللّه لومة لائم، و قدمنا أكثر من مرة ان الأمر من الأعلى لا يلحظ فيه مقام المأمور مهما بلغ من العظمة ما دامت دون عظمة الآمر.

﴿ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً ﴾. إذا أفحم المبطل و لم يجد حجة يتذرع بها أخذ باللف و الدوران، و قاس الأشياء بخياله و أوهامه، و هذه هي بالذات حال المشركين مع محمدﷺ .. أتاهم بالدلائل و البينات، و لما عجزوا عن ردها قالوا: كيف يكون نبيا، و له نساء و أولاد؟. و هذا المنطق العليل يتفق تماما مع منطق الذين آمنوا بالرهبانية و قد رد اللّه عليهم بأن محمدا كنوح و ابراهيم و إسماعيل و غيرهم من الأنبياء و الرسل الذين لهم نساء و أبناء، فأي عجب في ذلك؟. و في الحديث عن النبيﷺ انه قال: «أما أنا فأصوم و أفطر و أقوم و أنام، و آكل اللحم، و أتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

﴿ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾. و هذا رد أيضا على المشركين الذين اقترحوا على رسول اللّه أن يأتيهم بما يهوون من المعجزات .. و وجه الرد، ان اللّه سبحانه قد زود نبيه محمدا بما هو كاف واف في الدلالة على نبوته لمن تدبر و اعتبر، و طلب الحق لوجه الحق، أما الاستجابة لأهواء العنود المكابر فلا يحتمها عقل و لا عرف، و أمرها متروك الى اللّه و حكمته جل و عز ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ ﴾. لكل شيء أجل معجزة كان أو عذابا أو غيرهما، و الأجل محتوم لا يتقدم و لا يتأخر، و هو مكتوم أيضا لا يعلمه الا اللّه.

[الآيات ٣٩ الى ٤٣]

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ﴿٣٩﴾ وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ ﴿٤٠﴾ أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴿٤١﴾ وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ

الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ﴿٤٣﴾

اللغة

المراد بالمحو هما نسخ الأحكام. و أم الكتاب أصله، و علمه تعالى هو الأصل لجميع الكتب السماوية. و أطراف الأرض جوانبها. و قيل: الأطراف هنا جمع طرف بكسر الطاء، و هو الشيء الكريم، و ان الأرض تنقص بموت كرامها. و هذا المعنى بعيد عن سياق الآية. و لا معقب لحكمه أي لا راد له.

الإعراب

انما مركبة من كلمتين: ان الشرطية و ما الزائدة اعرابا. و نرينك مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. و جواب الشرط فإنما عليك البلاغ. و جملة ننقصها حال من ضمير نأتي. و لا معقب «لا» نافية للجنس و معقب اسمها و لحكمه خبر، و الجملة حال من ضمير يحكم. و كفى باللّه الباء زائدة اعرابا و لفظ الجلالة فاعل كفى، و شهيدا حال أو تمييز على معنى من شهيد. و من عنده «من» اسم موصول في محل جر عطفا على لفظ الجلالة، أي و كفى بمن عنده، و عنده خبر مقدم، و علم الكتاب مبتدأ مؤخر، و الجملة صلة الموصول.

المعنى

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ﴾. أم الكتاب كناية عن علمه تعالى بما كان و يكون، و لو جاز لنا تفسير الألفاظ بالذوق و الاستحسان لفسرنا الكتاب بالكون، و الأم بعناصره و أسراره، لأن للّه كتابين و في كل منهما آيات بينات على وجوده و وحدانيته، و جلاله و عظمته: أحدهما ينطق بلسان الحال، و هو الكون، و الآخر بلسان المقال، و هو القرآن. أما المحو و الإثبات فقد نقل الطبرسي في معناهما ثمانية أقوال، و أقربها ان المراد بالمحو نسخ الشريعة كالشرائع القديمة، أو نسخ بعض أحكامها كنسخ الصلاة الى بيت المقدس من الشريعة الاسلامية. أما الإثبات فالمراد به إقرار الأحكام و رسوخها إلى يوم القيامة، و عليه يكون المعنى ان اللّه سبحانه ينسخ أو يقر الشريعة كلا أو بعضا حسبما تستدعيه الحكمة و المصلحة، و هو جلت عظمته عالم بما يصلح العباد و ما يفسدهم، فينهاهم عن هذا، و يؤمرهم بذاك دواما أو مؤقتا على مقتضى علمه بأمد المضار و المنافع .. و تكلمنا عن النسخ عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٩.

﴿ وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ ﴾.هذه الآية تتصل بالآية ٣١ من هذه السورة، و هي قوله تعالى: ﴿ وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾. و وجه الاتصال ظاهر حيث قال اللّه لنبيه: انه سينزل العذاب على من كذبه لا محالة، ثم قال له في الآية التي نحن بصددها: سواء أريناك عذابهم أم توفيناك قبل ذلك فان مهمتك الأولى و الأخيرة ان تؤدي رسالتك على وجهها و كفى و ما عدا ذلك علينا، لا عليك.

﴿ أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ﴾. الأرض كرة لا أطراف لها كما للجسم المسطح، و لكنها كبيرة تتسع لملايين الأجناس و الأنواع من الكائنات و المخلوقات، و هي في تغير دائم .. فبينا يرى الإنسان أو يسمع ان هذه البقعة من الأرض آهلة بالسكان و أسباب الحضارة و أنواعها، و تلك البقعة صحراء جرداء و إذا بالآهلة خراب يباب، و بالصحراء جنات و عيون .. و أهل الأرض كذلك: حضارات تحيا، و أخرى تموت، و ملك يقوم، و آخر يزول .. و هكذا دواليك، لا يدوم بؤس و لا نعيم في هذه الأرض .. قال الإمام علي عليه السلام: «احذروا الدنيا فإنها غدارة غرارة، خدوع معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، و لا ينقضي عناؤها». و قوله تعالى: ﴿ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ﴾ يشير الى هذا المعنى، و ان العاقل يتعظ و يعتبر بهذه التقلبات و التغيرات: ﴿ أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١٠٩ يوسف).

﴿ وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴾. و قد حكم بالهلاك على القوم المجرمين، فنفذ فيهم حكمه و بأسه: ﴿ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴾ (١١ الرعد).

﴿ وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ﴾. و المراد بمكر اللّه إبطال مكر الماكرين و تدبيرهم. انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران، فقرة اللّه خير الماكرين ج ٢ ص ٦٨ ﴿ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ لأنه واسع عليم ﴿ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ يوم ينقلبون الى ربهم، و يقولون: هذا يوم عسير.

﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾. أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وآله رغم البينات و الدلائل .. لأنها حرب و ثورة على الظلم و الطغيان، و على كل تقليد يحول دون الإنسان و حريته و أمنه و سعادته.

راحة الضمير و الوجدان

﴿ قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ﴾. أمر اللّه نبيه في هذه الآية ان يقول للمشركين: إذا أنكرتم رسالتي فإن اللّه يشهد بأني رسول من عنده، و أيضا المنصفون من علماء التوراة و الإنجيل يشهدون بذلك .. هذا هو المعنى الظاهر، و هو المراد، و عليه جميع المفسرين، و نحن معهم، و لكنا

نلمس من وراء هذا الظاهر معنى كبيرا و جليلا ينطبق على كل من آمن بالحق و عمل به، و أنكره عليه المفسدون في الأرض، و لاقى منه ما لاقاه الأنبياء و المصلحون، و يتلخص هذا المعنى الكبير الجليل الذي ترمز اليه الآية بأن كل من استراح ضميره الى شيء و شهد معه الوجدان السليم فإن اللّه أيضا يشهد و ملائكته و المنصفون من عباده بأنه على حق، نبيا كان أو غير نبي.

و تسأل: متى يكون الإنسان مرتاح الضمير، و يشهد معه الوجدان السليم؟.

الجواب: ان الإنسان لا يكون من أهل الضمير الحي و الوجدان السليم الا إذا آمن بقيم انسانية كالعدالة و الحرية و الصدق و الأمانة، و ما الى ذلك مما يعود خيره على الجميع، و متى آمن الإنسان بالقيم، و لاءم بين تصرفاته و إيمانه استراح ضميره و شهد له وجدانه، و متى وقع الانفصال بين التصرف و الايمان تأرق ضميره، و أنحى عليه لوما و تقريعا. و أهل الضمير و الوجدان لا يهتمون الا بقيمتهم أمام ضميرهم، و أمام الناس الطيبين من أمثالهم الذين يشاركونهم الايمان بالمثل و القيم الانسانية، أما قيمتهم عند من لا ضمير له، و لا يرى الا نفسه و صالحه فلا يهتمون بها على الإطلاق، بل يتهمون أنفسهم، و يتوبون الى اللّه إذا رضي عنهم المفسدون. و في يقيني ان أكثر الناس سعادة هم أهل المبادئ الحقة الذين لا يعملون الا بما استراحت اليه ضمائرهم.

و تقول: ان كثيرا من الناس يشعرون بالسعادة إذا وجدوا ما يبتغون، و مع ذلك لا يؤمنون بقيمة و لا مبدأ .. و هل السعادة الا شعور الإنسان بأنه يجد ما أراد؟

و هل الشقاء الا الاحساس بحرمانه مما يريد؟.

الجواب: أولا ان حديثنا مقصور منذ البداية على أهل الضمير دون غيرهم، و هؤلاء لا ضمير لهم. ثانيا: ان كثيرا من الذين يجاهرون بإنكار القيم يقرونها في قرارة أنفسهم، و لكن لما غلبت عليهم شقوتهم حاولوا إخفاء هذا الغلب و العجز بإنكار ما يقرون و يؤمنون، و قالوا كاذبين على أنفسهم: لو كان هناك قيم لالتزمنا بها و حرصنا عليها، تماما كما ينكر المجرم جريمته و هو على يقين منها.